

الكتابة النسائية كرهان من رهانات الحداثة

د. سعيد عبيدي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس / المغرب

الملخص:

إن الكتابة النسائية لم تظهر في مجتمعاتنا العربية إلا في مرحلة النهضة؛ ولم يتبلور كتجربة إلا في الخمسينيات من القرن السالف، تبعاً لتحولات اجتماعية وسياسية على صلة وثيقة بموضوع المرأة وتحوله المفصلي، فبدأت المرأة تلج المؤسسات والمجالات ومن هنا كانت الانطلاقة، وكانت عملية الكشف عن انشغالات أخرى كانت متوارية، محتشمة قبل عقود من الزمن، وبالتالي التوجه نحو حياة أخرى لها معنى جديد بعيد عن الوظائف التقليدية التي ارتبطت بقدرية المرأة. ويسعى الباحث من خلال هذا المقال لتسليط الضوء على واقع الكتابة النسائية كرهان من رهانات عصر النهضة الذي يطرح في "ذاته إشكالية؛ حيث إنه حقل أدبي جديد داخل حقل الأدب العربي المعاصر، تأرجح بين القبول والرفض والحضور والغياب، تأرجح منتجته المرأة التي تعد جزءاً من القضايا المطروحة على محك البحث من أيام النهضة الأولى.

الكلمات المفتاحية: الكتابة النسائية، عصر النهضة، الأدب العربي المعاصر.

Abstract :

Women's writing did not appear in our Arab societies except in the Renaissance. It did not crystallize as an experiment until the 1950s, following social and political transformations closely related to the subject of women and its transformation into a hinge. Others were hidden, decent decades ago, and therefore towards another life with a new meaning far from the traditional functions associated with the potency of women.

In this article, the researcher seeks to shed light on the reality of women's writing as a renaissance of the Renaissance bets, which is presented in itself as problematic. It is a new literary field in the field of contemporary Arabic literature, oscillating between acceptance, rejection, presence and absence. On the test of research from the early Renaissance.

Keywords: Women's Literature, Renaissance, Contemporary Arabic Literature.

المقدمة:

تعتبر الكتابة النسائية حلقة من حلقات الإبداع الأدبي لها سماتها الفنية والموضوعية التي تكسبها الخصوصية والتفرد، ومن هنا فإنّ أية وقفة حول هذه الكتابة اليوم تقتضي منا جدلا استحضار مفهوم هذا الأدب بشكل عامّ وخصوصياته، وما يمكن التأكيد عليه هنا هو أنّ الكتابة النسائية أو الأدب النسائي لم يظهر في مجتمعاتنا العربية إلا في مرحلة النهضة؛ ولم يتبلور كتجربة إلا في الخمسينيات من القرن السالف، تبعاً لتحوّلات اجتماعية وسياسية على صلة وثيقة بموضوع المرأة وتحوّله المفصلي، فبدأت المرأة تلج المؤسسات والمجالات ومن هنا كانت الانطلاقة، وكانت عملية الكشف عن انشغالات أخرى كانت متوارية، محتشمة قبل عقود من الزمن، وبالتالي التوجّه نحو حياة أخرى لها معنى جديد بعيد عن الوظائف التقليدية التي ارتبطت بقدرية المرأة.

وفي تناولنا لهذا الموضوع لا بدّ أن نشير في الأول إلى ضرورة التفريق بين مصطلح الكتابة النسائية والكتابة الأنثوية، لأنّ المصطلح الثاني "كمفهوم ابتدائي عام، يحيل على ما تقوم به الأنثى، وما تتّصف به، وتتضبط إليه، الأمر الذي يستدعي، إلى الذاكرة؛ ذاكرة القارئ، وبطريقة لإرادية، وظيفتها الجنسية، وذلك لفرط ما استخدم اللفظ لوصف الضعف والرقّة والاستسلام والسلبية"¹، وعليه فإنّ الحاجة إلى إيجاد مصطلح بديل، يفرغ مفهوم الكتابة النسوية من إحالاتها الجنسية، المخبّأة في الذاكرة الشعبية والتّقافية، على مستوى المجتمع العربي، اتّجهت إلى مصطلح آخر، هو: الكتابة النسائية، بوصفه توقيعا

نسويا؛ لأن كل ما كتبه المرأة لا يمكنه إلا أن يكون نسويا، وفي أحسن حالاته يكون نسويا على أكمل وجه"².

وقد ظهرت تسميات أخرى للكتابة النسوية ابتكرها الغرب ووصلت إلينا؛ إذ ظهرت في السويد مثلا تسمية هذه الكتابات بأدب "الملائكة والشكاكين"، وهو ما قلده أنيس منصور حين أطلق على ما كتبه المرأة "أدب الأظافر الطويلة"، كما سمّاه إحسان عبد القدوس "أدب الرّوج والمانكير" إذ رأى فيه أدبا صوتيا وشكليا تعنتي المرأة فيه بالتأثير الزيني والتخلي عن طريق اختيار الجملة والعبارة دون التدقيق في الموضوع"³.

وعلى أيّ فمصطلح "الكتابة النسائية" مصطلح غير ثابت ولا مستقر بما يثيره من اعتراضات وما يسجل حوله من تحفظات، فقد ظهرت طائفة من النقاد رفضت هذه التسمية رفضا مطلقا، ومن ذلك ما ذهب إليه الناقد خالدة سعيد والتي أكدت على أنّ مصطلح "الكتابة النسائية" مرفوض من منطلق كون التسمية تتضمن الهامشية مقابل مركزية مفترضة، هي مركزية الأدب الذكوري، فهو مصطلح شديد العمومية وشديد الغموض، وهو من التسميات الكثيرة التي تشيع بلا تدقيق...، وإذا كانت عملية التسمية ترمي أساسا إلى التعريف والتصنيف وربما إلى التقويم، فإنّ هذه التسمية على العكس، تبدأ بتغييب الدقة، وتشوش التصنيف وتستبعد التقويم، هذه التسمية تتضمن حكما بالهامشية مقابل مركزية مفترضة"⁴.

ويظهر هذا الرفض للمصطلح عند طائفة من الأديبات؛ فمثلا ترفض الأديبة المغربية خناثة بنونة التعامل مع تعبير الكتابة النسائية لأنه يؤدي إلى التصنيف داخل الإنتاج الأدبي⁵، كما لا تؤمن الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي بالأدب النسائي انطلاقا من قولها: "أنا لا أؤمن بالأدب النسائي و عندما أقرأ كتابا لا أسأل نفسي بالدرجة الأولى هل الذي كتبه رجل أو امرأة"⁶، كما تعتبر الأديبة السورية غادة السمان مجرد الخوض في المفهوم يعدّ حوارا عقيما، فهي ترى أنه "من حيث المبدأ ليس هناك تصنيف لأدبين نسائي و رجالي"⁷، وهو ما زكاه الكاتب المغربي الزاحل محمد شكري إذ ذهب إلى أنه "ليست هناك كتابة نسائية محضة وكتابة رجالية محضة، بل هناك كتابة جيّدة وكتابات رديئة. ربّما تاريخ المرأة كما نعرفه عبر العصور، فقد كانت مكموعة داخل الأسرة وخارجها وفي المجتمع، ويصعب عليها الآن أن تتخطى كلّ الحواجز التي وضعت في طريقها، فهي تناضل وتكافح من أجل إثبات ذاتها. ولكن لا يمكن لنا أن نتنبأ بأنّ الأدب النسوي سيقول الأدب الرجالي وسيظل صامداً إلى الأبد مقارنة مع ما كتبه بعض النساء"⁸.

والحديث عن الكتابة النسائية يطرح في ذاته إشكالية؛ حيث إنّه حقل أدبي جديد داخل حقل الأدب العربي المعاصر، تآرجح بين القبول والرفض والحضور والغياب، تآرجح منتجته المرأة التي تعدّ جزءاً من القضايا المطروحة على محكّ البحث من أيام النهضة الأولى...، والظاهر أنّ التّصورات النّقدية التي حاولت الاقتراب من إشكاليات الأدب النسائي قصد معالجتها واستخلاص ما تتوفّر عليه من سمات مفيدة، وكذلك المنظورات الإبداعية التي أنتجت هذا اللون من الأدب تنزع إلى رفض هذا المصطلح "الأدب النسائي" الذي يُجرى

فعل الإبداع، وإن كانت تقرُّ في سياق رفضها له ما يتوفَّر عليه هذا النمط من الكتابة التي تُنشئها المرأة من خصوصيات تجعل منها ظاهرةً مُتميِّزةً في حقل الإبداع⁹.

أما عن خصوصية هذه الكتابة فقد أكد بعض النقاد على أنّ "الجديد الذي تمكّنت المرأة الكاتبة من تحقيقه للأدب العربي المعاصر على عدّة مستويات وداخل مجموعة من الأقطار العربية - على مستوى التراكم والأجناس الأدبية والقيمات المهيمنة والجرأة في الكتابة - لا يمكن حصره، وذلك من خلال كتابتها في مواضيع لم تكن مطروقة من قبل، وتلك أهمّ قفزة تحقّقها الكتابة النسائية العربية، حيث دخلت المرأة مجال كتابة السير الذاتية، كما اقتحمت بعض الطابوهات التي ما تزال تقيّد هذا النوع من الكتابة، كموضوع الاغتصاب الجنسي، وغيرها من الاقتحامات الأخرى التي تجعل أدب المرأة العربية ذا حضور فعلي ومتوهّج الآن وأكثر من أيّ وقت مضى"¹⁰، فلا يكون منّا إلا أن نعتزف بقدره المرأة "على التّفرد في رؤيتها الخاصّة إلى الذات وإلى المجتمع والعالم، وذلك في اختلافها المشروع عن غيرها من الرّؤى الأخرى المعصّدة والمخالفة"¹¹.

فالمرأة اليوم أشدُّ وعياً من أيّ زمن مضى "بدورها كمُنْتِجَة خطابٍ يبلغ صوتها ويُساهم في توصيل مواقفها ووجهات نظرها، سواء فيما يخصّ صورتها أو علاقتها بالمُجتمع، فهي تُدرك دور أشكال التّمثيل الأدبي (شعر، قصّة، ورواية) في تغيير السّائد، والانتصار على رواسب "ثقافة المؤوودة"؛ من أجل تكريس "ثقافة المولودة"¹²، فبالكتابة استطاعت المرأة أن تعبّر عن ذاتها "والبوح بسرّها، والصراخ بقلمها، معلنة عن ميلادها،

مؤكّدة لحضورها، محرّكة للمنسي من أخبارها بوعي وإدراك وتبصّر وإحفاق، وعلى الرّغم من طموح الخطاب النّسائي إلى امتلاك منصّة تُترجم حقيقة الوجود الفعلي للمرأة ككيان إنساني يتفاعلُ ويتفاعل مع نفسه ومع محيطه، فإنّه لا يزال يُصارع من أجل ذلك في السّرّ والعلن¹³.

لقد حاولت المرأة العربية في كتاباتها نشر الوعي وروح النّضال في أوساط النّساء بغية ولوج أحسن المراتب، "فقد تجلّى هذا الوعي في مستوى نموّ الحركات النّسائية في الوطن العربي والتي ساهمت -بذورها- في تحرير العقلية العربية من بعض النّصوّرات السّائدة حول المرأة (العطالة، الدونية، النقص)"¹⁴، فالنّساء حين يكتبن "عن ذواتهنّ وحرقتهنّ وشوقهنّ وتطلّعاتهنّ إلى إثبات حضورهنّ وتكديس كينونتهنّ تكون الكتابة في أبسط تجلياتها هي حركة دائمة ومتجدّدة نحو هدم وتثوير الواقع المادّي، وهي حركة نحو ابتداء واختلاق واقع مُتخيّل وحياة افتراضية يتحقّق فيها التّوازن النّفسي والتّكامل الإنساني، هكذا تصوغ المرأة المُبدعة عبر الكتابة حياتها الجديدة وولادتها الجديدة للامتداد في الواقع الإنساني الرّحب، الواقع الذي ألغى وجودها وركنها في الظل، اليوم تعلن النّساء العصيان والتمرد على سلطة المجتمع وتتوسّل الكتابة والإبداع لاقتباس أسرار الرّؤيا والانعتاق من أسر العتمة المُطبقة وأشكال الحصار"¹⁵.

من حقّ المرأة إذن ومن خلال كتاباتها "أن تُعبر حقيقةً عن ما تريد أن تُعنيه، وأن تقول ما يتعلّق بهويّتها وتجربتها التي تختلف جسدياً وثقافياً ونفسياً ولغوياً عن هوية الرّجل وتجربته، وأن تسمع صوتها المقموع والمكبوت والمستلب داخل لغة ليست لغتها، وأن تحكي تجربتها وشعورها، وتتسج رؤيتها للعالم في أشكال فنية تتلاءم مع جسدها ونفسها وثقافتها

ولغتها، وهذا ليس مستحيلًا إذا انطلقنا من أنّ اللغة الإنسانية أغنى مما نعتقد؛ إذ يُمكنها أن تقول الرجال والنساء بشكل مختلف، ولتكن البداية بافتراض أنّ اللغة الأدبية السائدة هي ذكورية يصنعها ويُراقبها الرجل، ومن حقّ المرأة أن تقول وأن تكتب خارج المُراقبة بعيدًا عن أشكاله الفنيّة ورؤاه الحياتيّة¹⁶.

إنّ الناظر إلى الكتابة النسائية بعين المتفحص سيلاحظ أنّ المرأة الأدبية "قطعت فوق جسر الكتابة شوطًا ليس بالهين، هربت من سيف مسرور، وضغط القبيلة التي أرادت أن تكون جزءًا من متاعها ومُتعتّها فقط فلم تسلم من جرابها أسلحتها المعروفة للإعلان عن وجودها الجديد، بل امتشقت سيف الكتابة، وبارزت به صفحات بيضاء أسالت فوقها عبير استشهادهَا، ففي معبد الكتابة، تصلّي الذات المبدعة في محراب الاعتناق من أنين الواقع وانجرحاته، هكذا تغتسل في محبرة الوجود، تحيط بها طقوس تسكر من معيني الخيال، وفي هذا الفضاء الفضفاض تنشر علامات الاستفهام والتعجب رداؤها، كلّما غزت حقيقة أدبية قبيلة الذكور، وأعلنت أمام شيخها أنّها ترفض الاستسلام والخنوع لملاسات كثيرًا ما طفت مثل الفقاعات فوق صرحنا الثقافي، فكم هو غريب ألا نتخلّص في ميدان الإبداع؛ حيث يجلس القلم ملكًا، والحروف رعايا في مملكة اللّغة، من هاجس الانزلاق في متاهة مصطلحات¹⁷.

لقد حققت الكتابة النسائيّة في السّنوات الأخيرة، "تراكمًا وحضورًا ملحوظين لافتين، هذا الإسهام يُعتبر علامة تعيّر في أفق الكتابة الإبداعية، وفي محتواها وتشكيلها الأسلوبي والفني، وأبعد من ذلك فيها إغناء للمشهد الأدبي والثقافي عامّة برؤية جديدة، أو مُغايرة في

مستوى الرغبة والتحقق معاً، ولا يتعلّق الأمر بمجرد استيهامات ضدّ سلطة الممنوع وقمع الشريك ذي الهوية الجنسيّة المختلفة؛ بقدر ما هو تجسيد لكفاءة تعبيرية، ولخبرة فنيّة في تصوير الجسد النابض بالحياة، والمسكون بالافتتان عاشقاً ومَعشوقاً¹⁸.

لقد استطاعت الكتابة النسائية أن تؤسّس لحقبة تاريخية في الأدب، ساهمت في الرّفح من مكانة المرأة مجتمعيًا وأدبيًا، وفي التأثير على صناعة القرار الفكري والثقافي، على الرّغم من مظاهر الرّفص والنّهيمش التي ظهرت كردّ فعل على ظهوره، إلا أنّها لم تمنع تقدّمه في السير بالمرأة قدما نحو مزيد من الحرّية والتحرّر، ونحو مزيد من الازدهار في الأدب والمعرفة، "وإذا ما ربطنا الكتابة النسائية الحديثة بمستجدّات واقعها ومتغيّراته، فقد نلمس أنّ الكتابة عرفت تجديدا كبيرا على مستوى اللغة وطرائق التخييل والكتابة، ضدّا على طقوس الكتابة الكلاسيكية، وقد شهدت الألفية الثالثة أقلاما نسائية ثائرة وجريئة مع أحلام مستغانمي (ذاكرة الجسد/1988)، وأمال مختار (الكرسي الهزّاز/2002)، وهيفاء بيطار (امرأة من هذا العصر/2010)، إضافة إلى كتابات ليلي العثمان، وكتابات رجاء صانع. كتابات يمكن وصفها بكونها صوتا ثورياً مزدوجاً، فهي ثورة من أجل الحرّية والكرامة والعدالة، ومبطنّة بثورة تقويض صورة المرأة التي فرضها المجتمع والرّجل والمؤسّسات. وفي خضم هذا الحراك السياسي الذي يعرفه المجتمع العربي من ثورات وانقذاضات لا يمكننا إلا أن نسجّل أنّ المرأة قد حقّقت تطوّرا لافتا في مجالات الفكر والأدب، ولنا أن نستدلّ بحصيلة الجوائز التي راكمتها سواء فيما يخصّ جائزة نوبل في الأدب أو السّلام، أو جائزة البوكر¹⁹.

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نقرّ بأنّ "الكتابة النسائية هي رهان من رهانات الحداثة وأفق مفتوح للاشتغال والتنوع والغيرية، ناجم عن عمق التجربة ودقّة الفهم. تتوخّى هذه الكتابة الحذر المنهجي والمعرفي عند تقسيم الأدب إلى "رجولي" و"نسائي" لأنها كانت مؤمنة بأنّ شرعيته تتحدّد من الدّاخل -أي داخل النصّ- بعيدا عن جنس المنتج، كما أنّ التّقابل الجنساني (نكر - مؤنث) استهلك كلّ الأدوار داخل المنظومة الثقافية، إذ أنّ التّجربة تجاوزت فكرة الفصل إلى السّعي لبيان الاختلاف بينهما داخل وحدة إبداعية مشتركة لمساءلة الوجود، فالكتابة النسائية ساهمت مساهمة كبيرة في إعادة ظهور أسئلة جديدة تتميّز بالجرأة في الطرح والكشف عن الواقع الأنتوي الذي يسكن الكتابة النسوية عبر ممارسة المرأة للشغب داخل النصّ والحفر عميقا في مكبوتاته"²⁰.

الهوامش:

- 1- نازك الأعرجي، صوت الأنثى، دار الأهالي، دمشق، سوريا، 1997، ص: 31.
- 2- فيرجينيا وولف، الثقافة العالمية، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الكويت، العدد 7، السنة الثانية، المجلد الثاني، نونبر، 1982، ص: 26.
- 3- انظر: أشرف توفيق، اعترافات نساء أديبات، دار الأمين، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998، ص: 11.
- 4- حسن نجمي، شعرية الفضاء السردي المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص 173.
- 5- انظر: زهور كرام، السرد النسائي العربي: مقارنة في مفهوم الخطاب، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2004، ص: 94.
- 6- نفسه، ص: 94.
- 7- حسام الخطيب، حول الرواية النسائية في سورية، مجلة المعرفة، العدد، 166، ص: 81.

- 8- انظر الحوار الذي أجراه الإعلامي والشاعر المغربي عبد الحق بن رحمون مع الروائي المغربي محمد شكري والمنشور بجريدة الزمان اللندنية، بتاريخ: 1987/12/05.
- 9- مباركة بنت البراء، الأدب النسائي حقل أدبي جديد داخل حقل الأدب العربي المعاصر، أفروديت (الأنثى والكتابة)، العدد الثاني، 2005، ص: 9.
- 10- عبد الرحيم العلام، الفوضى الممكنة: دراسات في السرد العربي الحديث، دار الثقافة، ص: 237-236.
- 11- زهور كرام، في ضيافة الرقابة، منشورات الزمن، المغرب، 2001، ص: 36 - 37.
- 12- زهرة الجلاصي، ما بعد الكتابة النسائية، آفاق، العدد: 67، 2002، ص: 34.
- 13- نجاة المريني، علامات نسائية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2006، ص: 18 - 19.
- 14- زهور كرام، السرد النسائي مقارنة في مفهوم الخطاب، ص: 24.
- 15- توفيق مصباح، من يدفع النساء للكتابة، جريدة الصحراء، 16 يونيو، 2001، ص: 4.
- 16- حسن المودن، الكتابة والمرأة، مجلة أفروديت (الأنثى والكتابة)، العدد الثاني، ص: 45.
- 17- همس اليراع، شغب الكينونة الموعلة في الجرح الثقافي "الشعر نموذجاً"، أفروديت (الأنثى والكتابة)، العدد الثاني، 2005، ص: 10 - 11.
- 18- عبد الحميد عقار، صوت الفردانية، ضمن كتاب: الكتابة النسائية: محكي الأنا محكي الحياة، مجموعة من المؤلفين، اتحاد كتاب المغرب، يوليوز، 2007، ص: 3 - 4.
- 19- سعيد يقطين، الكتابة النسائية صوتا وصدى، صحيفة العرب، عدد 9815، بتاريخ: 2015/02/01، ص: 13.
- 20- محمد داود، فوزية بن جليد، كريستين ديتريز، الكتابة النسوية: التلقي، الخطاب والتمثلاث، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2010، ص: 544.